وقد خلصت أنفاسى واستراح قلبي : هذا خيرٌ ، فما يستحق مثل هذا النقد الا هذا المصير .

ولم يتغير رأيي فى الشعر ولكنى صححت موقفى من حافظ ، فهو عندى لسان العصر الذى عاش فيه ، وصوت الشعب الذى انجبه . ولم يكن العصر يحتاج الى ارفع من هذه الطبقة ، ولا كان الشعب يقدر ان يحسّ روحه الا فى مثل شعر حافظ . نعم ظهرت المدرسة الحديثة فى الشعر والأدب على العموم منذ أكثر من عشرين سنة ولكنها لم تكن مدرسة « شعبية » فلم تستحوذ على الجمهور استحواذ حافظ عليه ، ولم تستولِ على هواه مثل استيلائه ، ولم يتصل ما بين هذه المدرسة الجديدة وبين الشعب الا بعد أن أخذت دائرة الثقافة فى الاتساع .

فحافظ شاعر شعبي ، ولست أقصد الى الازراء به أو الغضّ منه ، فما أريد أكثر من ان اقول انه يصور روح الشعب الموجع الحزين المتجلد فى شيء من الوجوم والدهشة والحيرة : الحيرة فى امر نفسه ، والحيرة فى امر هذه المقادر التى لا تجرى الا بالدواهى والأرزاء . وما قرأت شعراً لحافظ الا أحسست ذلك منه . واكبر ظنى ان غيرى من القراء مثلى . وليس بالقليل ان يكون رجلٌ لسان امة والهاتف بنجوى ضميرها وسر روحها ، مهما كان الرأى فى قيمة الشعر من حيث هو شعر وبغض النظر عن بواعثه وعن الروح التى صدر عنها الشاعر والغاية التى اعتمدها وقصد اليها ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

موكب الذكريات

أو

الناى الباكى . . .

(مهداة إلى روح المغفور له محمد حافظ ابراهيم شاعر الجمال والذكريات)

مالكَ اليومَ واجماً يا خيالى كيف لا ترسمُ الدموعَ الغوالى؟
سقطتْ فوقَ صفحةِ الخدّ دُرّاً وتهادتْ مضيئةً كاللآلى

هبطتْ : كلُّ دمعةٍ كوكبٌ نغمٌ ، عظيمُ الضياء ، سامى الجمالِ
وبروحى أفديك من ألم الوجدِ ، حياتى ، ومن ضنىً وهزالِ

« • »

وعجيبٌ يا فتنتى أنْ تلوحى ثرَّةَ الدمع ، وهو من قبس روحى
كان خيراً — لو ترأفين بحالى — حُبْسُه ، إننى كثيرُ الجروحِ
أفلا تعلمين أن فؤادى مَنبعُ العشق والهوى والطموحِ ؟
أوَهل تُنكرين أنّ دموعاً منكِ تُغرى شغافَ قلبى الطليحِ ؟

« • »

ولرُبَّ ابتسامةٍ منكِ بالأمس أضاءت ببسمةٍ للسعادهْ
وأحاطت روحى بهالة حُسْنٍ طالما قد خصصْتُها بالعبادهْ
وفؤادي يا طالما عندها صاغ قصيداً مُنضَّداً فأجادهْ
صاغه من نسائم الفجرِ شعراً وسقاه وجدانه ووداده

« • »

والذى يقتل الشعورَ ادّكارى زمنَ الوصل إذ وقفتِ جوارى
والعيونُ الظِماءُ تُوحى مع الصمتِ كلاماً يهيج منه أوارى
والشفاهُ الرقاقُ تهفو على القُربِ لرشفٍ محبَّبٍ واعتصارِ
ولهيبٌ من وجنتيكِ مضىءٌ فحمةَ الليل ... يا له من نارِ !

« • »

كيف أنسى النخيلَ فى جانب الجدولِ طالت تروم لمسَ السماء
ترسل اللحنَ ، حينما تخطر الريح حزيناً ومُشجياً كالرثاء
شربتْ من دماء قومٍ تولّوْا فاستطالتْ فروعُها فى الفضاء
وكذاك الحياةُ تُفنى لتُعطى وعطاءُ الحياةِ بابُ الفناء

« • »

كنتُ يا طالما أُصوِّبُ طرفى في فضاء الوجود أَنشد فَهْمَا
لم أجد غير أننا فى وجودٍ يُذْهِل العالمَ البصيرَ فيعمَى
كلُّ ما فيه مُلغِزٌ ، لستَ تدريه ، ولو كنتَ قد تمكنتَ عِلْمَا
بَيْد أنّا ، هُنا ، نحاول بالشعرِ بياناً لِكل لُغزٍ مُعَمَّى

« • »

وإذا ما التوى على الفهم شيءٌ فابعثْ الشعرَ صوبَه يَتهادَى
إن بالشعر ينجلى كلُّ غَيْمٍ وبه تُصْبح الوهادُ مهادَا
أرغنُ العيش ، مزهرُ الروح ؛ نجواه سدادٌ لمن أراد السدادَا
يرسم الكونَ كيفما شاء ، لا يتبع رأياً ، ولا يلين انقيادَا

« • »

يا عزاء النفوسِ فى ساعةِ اليأسِ ، وساقى النفوس راحَ السرورِ
قُمْ ، تَحدَّثْ عن الفؤاد ورجِّعْ نغماتِ الاسى ولحنَ الحبورِ
لا تُفرِّقْ بالله بين شجونى وسرورى ، فكلُّ ذاك شعورى
مُلْهَمَ الروح .. قُمْ أيا شِعرُ واهتفْ أنت خدنى ، وناصحى ، وأميرى

« • »

ما الغرامُ الذى به نَتغنَّى كلَّ يومٍ فى نثرنا والقصيدِ ؟
أهو حبُّ الجمال والعقل ، أم هل هو حُبُّ الغِنى وحُبُّ الخلودِ ؟
الغرامُ الغرامُ نورٌ من الروح ، سَبوحٌ بروحِ طيرٍ شريدِ
ساربٌ فى سماوةِ الكونِ يرتادُ فضاءً مُنَزَّهاً من حُدودِ

« • »

يُذهِل الناسَ طائراً ، فإذا حطَّ بقلبٍ ، أصابه فاعتلاَّ
هو نُورٌ ، لكنه حينما يطرق القلبَ سعيرٌ فى نارها القلبُ يَصلى
هو روحُ الحياة ، يستعذب الخلقُ الأمانى متى بدا وأهلاَّ

يخلق العلمَ والنبوغَ ويُفنى كلَّ فنٍّ إذا طغى وتولّى

« • »

يافؤادى ، أعِدْ على غرامى وتحدث عن شقوتى وسقامى
بُثَّ فى الشعر ما عرفتَ عن الغيد ، ولُمْنى إذا رأيتَ ملامى
علم الله كم قصرتُ بيانى وقريضى على الهوى والتسامى
ولكم كنتُ أنفح الغيدَ بالشعر ، فما كنّ يستسغن كلامى!

« • »

كيف بالله يستسيغ جهولٌ آيةً من بلاغةٍ وبيانِ؟
كيف بالله تفهم الشعرَ أو كيف تحبّ البيانَ هذى الغوانى؟
هنّ برّزْنَ فى مغازلة الناس ، وقد فُقْنَ فى صنوف الدهانِ...
ولقد كنتُ كيفما شِئْن دهراً ذا مجونٍ وخبرة بالحسانِ!

« • »

وسقى الله ذلك العهدَ ، قد كنتُ سعيداً به وكنتُ طروبا
حيث كنا نرعى الكواكبَ زُهراً ونرى فى السكون سحراً عجيبا
غمر الحُسْنُ كلَّ شىءٍ فبتنا نحسب الخلدَ فى الحياة قريبا
يا رعى الله فى ثرى (أَجْإٍ) كوخاً صغيراً لقيتُ فيه الحبيبا...

« • »

ضرب الدهرُ بيننا فغدا الجسمُ محيلاً كدارسِ الاطلال
ونرى الشوقُ بالفؤاد فغنّى باكيَ الشوقِ فى القوافى الطوالِ
وله العُذْرُ... كيف ينسى التلاقى فى ضياء الهلال والعيشُ حالى
والسكون المقيمُ أرخى سدولاً تحجبُ الحُبَّ من أذى العُذّالِ

« • »

والنسيمُ البليلُ من جانبِ الجدولِ ، يهفو يعانق الأرواحا
هبَّ يُذكى الغرامَ فى خافقينا ثم يُنضى عن النفوسِ الجراحا

يدفع القلب لاهثَ الثغرِ للرشف ، فيحسو من اللمى أقداحا
والعناق العنيف كم جمع القلبين فى سورةِ الغرامِ فناحا

« • »

مَنْ يقول الغرام اثمٌ وعارٌ قل له أنت جاهلٌ لستَ تدرى
أنظرْ الحبَّ فى الخمائل يا غِرُّ ، عنيفاً ما بين زهرٍ وزهرِ
وانظر الحبَّ فى الربى كم تبدَّى عاصفَ الشوق بين طيرٍ وطيرِ
إنما آيةُ الحياةِ هى الحُبُّ ، فمن لم يحب عاش كصخرِ

« • »

رُبَّ حُسْنٍ فى الروض أيقظ حِسّى وأهاجَ الكمينَ من أفكارى
كم مَشى القلبُ صوبه يتغنى بنشيدٍ سمتْ به أشعارى
حبذا وقفتى مع الزهر فى الروض ، أقول القصيد فى الابكار
والطيور الخِفافُ تطفر نشوى وسُكارى ، وما انتشتْ من عقارِ

« • »

آهِ .. ما غرَّرَ الجمالَ بقلبى فدهانى وصرتُ منه المُعَنَّى ؟
أهو أنى نفحتُه وجدانى ودمائى مراقةً ، فتجنَّى ؟
أهو أنى بكرتُ كالبلبل الصدّاح فى الروض ساجعاً أتغنَّى ؟
أهو أن الدموع منّىَ حرّى صُغْتُها فى مديحه خيرَ معنَى ..؟

« • »

وأنا شاعرُ الملاحة مذ كانت ، وفى أىِّ صورةٍ تتجلَّى
أجتليها بخاطرى وفؤادي وبفكري ، مما ترى العين ، أحلى
نظرة القلب بعدها نظرة العين ، وشتّان بين عُليا وسُفلى
رُبَّ أعمى العينين ينظر للشىء بقلبٍ منوَّرٍ يتملَّى !

• • •

(روضة الشعر) كيف أزهارُكِ اليومَ ، وكيف الطيورُ فى عَذباتكْ ؟
كيف حالُ (البحيرة) الضحلة الماء ، وكيف (النخيلُ) فى جنباتكْ ؟
كيف (دوحاتُك) البواسقُ أسدلنَ شعوراً ، وكيف حال (مَهاتكْ) ؟
تمتطى (الفلك) فى (البحيرة) جذلى وتشمّ العبير من زهراتكْ

« • »

تبعث الشجوَ فى الفؤاد بمجداف اذا صافح (البحيرةَ) رَتّلْ
وتغنى فينصتُ الطيرُ فى الدوحِ ، ويُسبى الغناءُ أرخمَ بلبلْ
زهرةُ الروض فى الاصيل وفى الفجرِ ، وريحانةُ الفؤادِ المبلبلْ
طالما صُغتُ فى هواك قريضاً زاهياً كالورودِ ، بل هو أجملْ

« • »

وحنينى إلى لقائكِ يَدْوِى بفؤادى دَوِىَّ حيرانَ جائرْ
يُرسل الدمعَ والأنينَ هباءً وإذا هَمَّ ، أقعدتْه المقادرْ
حزبتْه الأيامُ فى ميعةِ العمرِ ، وقدّتْه بالسيوف البواترْ
حطمتْ كوخَ حُبِّه ونفتْه عن فتاةِ الاحلامِ أختِ الجآذرْ

« • »

رَبِّ ، ماذا جناه قلبى فيشقى وبخمرِ الصدودِ والهجر يُسْقَى ؟
ماونى الدهرُ عن هواه ، فأرداه وشيكاً وسامه الخسفَ رقّا
رَبِّ إنى جُننتُ من وثبة الدهرِ ، وانى أكاد أزهق عشقا
وتُرَى عائدٌ حبيبُكَ يا قلـ ـبُ مُنيباً ، أم عاف حُبَّكَ حقّا

« • »

وتعالى يا طيرُ واسمعْ شكاتى آخرَ الليل فى خفوتِ وهمسِ
أرقبُ النجمَ فى الدجى رفّافاً كفؤادى إذا طغى بىَ يأسى
وأقول القريضَ فيه عزائى وبه راحةٌ لقلبى وحِسّى

وإذا عضّك الأسى ، فالقوافى عنـد جاماتها شرابُ التأسّى

« ٠ »

وإذا ما أردتَ نظمَ القوافى فليكنْ فى المروج والأزهارِ
إنها — لو عقلتَ — أطهرُ روحاً من مِلاحٍ ، غرامُها كالقمارِ
وقلْ الشعرَ فى جمال الأماسى وترنم بحسنِ شمس النهارِ
حَسَنٌ كلُّ ما على الأرضِ من زهرٍ ومن أنهرٍ ومن أطيارِ

« ٠ »

ولماذا الأنينُ ؟ حطمتَ نفسكْ وعلامَ النحيبُ والعيشُ زَهْرُ ؟
أتعدُّ الحياةَ خلواً من الخيرِ ، وفى كلِّ ما ترى العينُ خَيْرُ
لا تُحقِّرْ مستصغراً وضعيفاً ربما منه قد يُصيبك بِرُّ
رُبَّ كلبٍ أطعمتَه ، يمنع الضُرَّ إذا ما أصاب بيتَك ضُرُّ

« ٠ »

وعَزاءُ النفوس أن تُرسلَ الشـ ـعرَ ، إلى بارىء الدُّنا قُربانا
يَغمر الروحَ عنـد نجواه نورٌ يُفعم القلبَ رحمةً وحَنانا
ويَشيع الهـدوءَ فى كلِّ فجٍّ وتُغنِّى قيثارتى الإيمانا
تَنشُدُ الخالدَ الجلالةِ والحُسـ ـنَ ، فمِنْ حُسْنِه قَبَسْتُ البيانَا

مختار الوكيل

حافظ كما عرفته

حافظ — ومن أسماه فقد كنّاه — يظلمه من ينظر اليه شاعراً فقط ولم ينظر اليه « رجلا » كاملَ الرجولة . يعلو عن قشور الناثر اذا ما ذكر الأدب بشعره الفحل فى الشعر ونثره الفحل فى النثر ، وبقوة بيانه وبلاغة لسانه وبعذوبة حديثه إذا حدث وسعة ذاكرته اذا روى كأنما تلك الذاكرة الواسعة دواوين من الشعر ومؤلفات